مسألة « صفات الله تعالى وعلوه على خلقه بين النفى والإثبات »

جواب سؤال رُفِعَ إلى شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية رحمه الله رحمة واسعة وجزاه خيراً .. آمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

السؤال : ما تقول السادة الفقهاء أئمة الدين ، فى رجلين تباحثا فى مسألة الإثبات للصفات والجزم بإثبات العلو ، فقال أحدهما : لا يجب على أحد معرفة هذا ، ولا البحث عنه ، ويعتقد أنَّ الله واحد فى ملكه ، وهو رب كل شىء وخالقه ومليكه . ومَن تكلم فى شىء من هذا فهو مجسِّم حشوى ، فهل هذا القائل لهذا الكلام مصيب أم مخطىء ؟ فإذا كان مخطئاً ، فما الدليل على أنه يجب على الناس أن يعتقدوا إثبات الصفات والعلو ويعرفوه ؟ وما معنى التجسيم والحشو ؟ أفتونا وابسطوا القول فى هذا مأجورين إن شاء الله تعالى ..

● الجواب :

الحمد لله رب العالمين .. يجب على الخلق الإقرار بما جاء به النبى ﷺ ، فما جاء به القرآن أو السُنَّة المعلومة وجب على الخلق الإقرار به جملة ، وتفصيلاً عند العلم بالتفصيل ، فلا يكون الرجل مؤمناً حتى يقر بما جاء به النبى ﷺ ، وهو تحقيق شهادة أنَّ لا إله إلا الله ، وأنَّ محمداً رسول الله ، فمَن شهد أنه رسول الله شهد أنه صادق فيما يُخبر به عن الله ، فإن هذا حقيقة الشهادة بالرسالة ، إذ الكاذب ليس برسول فيما يكذبه ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِاليَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوَتِينَ ﴾ (١) .

---

(١) الحاقة : ٤٤ - ٤٦

● جملة التصديق بما جاء به الرسول ﷺ :

وفي الجملة .. فهذا معلوم بالاضطرار من دين الإسلام لا يحتاج إلى تقريره هنا ، وهو الإقرار بما جاء به النبي ﷺ وهو ما جاء به من القرآن والسُّنَّة كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ ﴾ (٣) ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (٤) ، وقال تعالى : ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً ﴾ (٥) ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ ، فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ (٦) .

ومما جاء به الرسول رضاه عن السابقين الأولين ، وعن مَن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، كما قال : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ (٧) .

ومما جاء به الرسول إخباره بأنه تعالى قد أكمل الدين بقوله : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً ﴾ (٨) .

---

(١) آل عمران : ١٦٤ (٢) البقرة : ١٥١ (٣) البقرة : ٢٣١
(٤) النساء : ٦٤ (٥) النساء : ٦٥ (٦) النساء : ٥٩
(٧) التوبة : ١٠٠ (٨) المائدة : ٣

ومما جاء به الرسول أمر الله له بالبلاغ المبين كما قال تعالى : ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ، وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ، وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ (٣) .

ومعلوم أنه قد بَلَّغَ الرسالة كما أُمِرَ ولم يكتم منها شيئاً ، فإن كتمان ما أنزله الله إليه يناقض موجب الرسالة ، كما أن الكذب يناقض موجب الرسالة ، ومن المعلوم فى دين المسلمين أنه معصوم من الكتمان لشىء من الرسالة ، كما أنه معصوم من الكذب فيها .. والأمة تشهد له بأنه بَلَّغَ الرسالة كما أمره الله ، وبيَّن ما أُنزل إليه من ربه ، وقد أخبر الله بأنه قد أكمل الدين ، وإنما كمل بما بَلَّغه ، إذ الدين لم يُعرف إلاَّ بتبليغه ، فعُلِمَ أنه بَلَّغَ جميع الدين الذى شرعه الله لعباده كما قال ﷺ : « تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك » وقال : « ما تركتُ من شىء يُقرِّبكم إلى الجنة إلا وقد حدثتكم به ، وما من شىء يُبعدكم عن النار إلا وقد حدثتكم به » وقال أبو ذر : لقد توفى رسول ﷺ وما طائر يُقلِّب جناحيه فى السماء إلا ذكَّرنا منه علماً .

● تصديق الرسول فيما جاء به من صفات البارى :

إذا تبيَّن هذا .. فقد صَحَّ ووجب على كل مسلم تصديقه فيما أخبر ربه عن الله تعالى من أسماء الله وصفاته مما جاء فى القرآن وفى السُّنَّة الثابته عنه كما كان عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان الذين رضِىَ الله عنهم ورضوا عنه ، فإن هؤلاء الذين تلَّقوا عنه القرآن والسُّنَّة وكانوا يتلقون عنه ما فى ذلك من العلم والعمل كما قال أبو عبد الرحمن السلمى : لقد حدَّثنا الذين كانوا يقرؤننا القرآن كعثمان بن عفان وغيره أنهم

---

(١) النور : ٥٤ (٢) النحل : ٤٤ (٣) المائدة : ٦٧

كانوا إذا تعلّموا من النبى ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلّموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً ، وقد قام عبد الله بن عمر وهو من أصاغر الصحابة فى تعلم البقرة ثمانى سنين وإنما ذلك لأجل الفهم والمعرفة وهذا معلوم من وجوه .

● وجوب فهم القرآن وتدبره :

أحدها : أن العادة المطردة التى جَبَلَ الله عليها بنى آدم توجب اعتناهم بالقرآن المُنزّل عليهم لفظاً ومعنى ، بل أن يكون اعتناؤهم بالمعنى أوكد ، فإنه قد عُلِمَ أنه مَن قرأ كتاباً فى الطب أو الحساب أو النحو أو الفقه أوغير ذلك ، فإنه لا بد أن يكون راغباً فى فهمه وتصور معانيه ، فكيف مَن قرأ كتاب الله تعالى المُنزّل إليهم الذى به هداهم الله ، وبه عرّفهم الحق والباطل والخير والشر والهُدَى والضلال والرشاد والغى ؟

فمن المعلوم أن رغبتهم فى فهمه وتصور معانيه أعظم الرغبات ، بل إذا سمع المتعلم من العالِم حديثاً فإنه يرغب فى فهمه ، فكيف بمن يسمعون كلام الله من المُبلِّغ عنه ، بل ومن المعلوم أن رغبة الرسول ﷺ فى تعرفهم معانى القرآن أعظم من رغبته فى تعرفهم حروفه ، فإن معرفه الحروف بدون المعانى لا تُحصِّل المقصود إذ اللفظ إنما يُراد للمعنى

الوجه الثانى : أن الله سبحانه وتعالى قد حضّهم على تدبره وتعقله واتباعه فى غير موضع كما قال تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (٣) ، وقال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً ﴾ (٤) ، فإذا كان

---

(١) سورة ص : ٢٩ (٢) محمد : ٢٤

(٣) المؤمنون : ٦٨ (٤) النساء : ٨٢

قد حضَّ الكفار والمنافقين على تدبره عُلِمَ أن معانيه مما يمكن الكفار والمنافقين على تدبره [1] ، وعُلِمَ أن معانيه مما يمكن فهمها ومعرفتها ، فكيف لا يكون ذلك للمؤمنين ، وهذا يتبين أن معانيه كانت معروفة بيِّنة لهم .

الوجه الثالث : أنه قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [2] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [3] فبيَّن أنه أنزله عربياً لأن يعقلوا ، والعقل لا يكون إلا مع العلم بمعانيه .

● ذم مَن لم يفهم القرآن ولم يعقله :

الوجه الرابع : إنه ذمَّ مَن لا يفقهه ، فقال تعالى : ﴿ وَإِذَا قَرَأتَ القُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً * وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً ﴾ [4] ، وقال تعالى : ﴿ فَمَالِ هَؤُلاَءِ القَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً ﴾ [5] فلو كان المؤمنون لا يفقهونه أيضاً لكانوا مشاركين للكفار والمنافقين فيما ذمَّهم الله تعالى به .

الوجه الخامس : أنه ذمَّ مَن لم يكن حظه من السماع إلاَّ سماع الصوت دون فهم المعنى واتباعه ، فقال تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلا دُعَاءً وَنِدَاءً ، صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ [6] ، وقال تعالى : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ، إِنْ هُمْ إِلا كَالأَنْعَامِ ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [7] ، وقال تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ العِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً ، أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُواْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [8]

---

(١) كذا ولعل أصله : مما يمكنهم تدبر .
(٢) يوسف : ٢
(٣) الزخرف : ٣
(٤) الإسراء : ٤٥ - ٤٦
(٥) النساء : ٧٨
(٦) البقرة : ١٧١
(٧) الفرقان : ٤٤
(٨) محمد : ١٦

... وأمثال ذلك . وهؤلاء المنافقون سمعوا صوت الرسول ﷺ ولم يفهموا وقالوا : ماذا قال آنفاً ؟ أى الساعة ، وهذا كلام مَن لم يفقه ، قال تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [1] فمَن جعل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان غير عالمين بمعانى القرآن جعلهم بمنزلة الكفار والمنافقين فيما ذمَّهم الله تعالى عليه .

الوجه السادس : أن الصحابه رضى الله عنهم قرأوا للتابعين القرآن كما قال مجاهد : عرضتُ المصحف على ابن عباس من أوله إلى آخره ، أقف عند كل آيه منه وأسأله عنها . ولهذا قال سفيان الثورى : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به ، وكان ابن مسعود وابن عباس نقلوا عنه [2] من التفسير ما لا يحصيه إلاَّ الله . والنقول بذلك عن الصحابه والتابعين ثابتة معروفة عند أهل العلم بها .

• أسباب الاختلاف فى التفسير المأثور :

فإن قال قائل : قد اختلفوا فى تفسير القرآن اختلافاً كثيراً ، ولو كان ذلك معلوماً عندهم عن الرسول ﷺ لم يختلفوا . فيقال : الاختلاف الثابت عن الصحابة - بل وعن أئمة التابعين - فى القرآن أكثره لا يخرج عن وجوه :

أحدها : أن يُعبِّر كل منهم عن معنى الاسم بعبارة غير عبارة صاحبه ، فالمسمى واحد وكل اسم يدل على معنى لا يدل عليه الاسم الآخر مع أن كلاهما حق بمنزلة تسمية الله تعالى بأسمائه الحُسنى ، وتسمية الرسول ﷺ بأسمائه ، وتسميه القرآن العزيز بأسمائه .. فقال تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ، أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ [3] ، فإذا قيل : الرحمن ،

---

(١) محمد : ١٦

(٢) يُنظر مرجع الضمير فى قوله : « عنه » ، فهذان الصحابيان قد أخذا عن النبى ﷺ ولا ذكر له قبله ، ولعل فيه حذفاً يدل عليه كالتصلية بعد : « عنه » .

(٣) الإسراء : ١١٠

الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام - فهى كلها أسماء لمسمى واحد سبحانه وتعالى ، وأن كل اسم يدل على نعت لله لا يدل عليه الاسم الآخر ، ومثال هذا من التفسير كلام العلماء فى تفسير « الصراط المستقيم » ، فهذا يقول : هو الإسلام ، وهذا يقول : هو القرآن ، أى اتباع القرآن ، وهذا يقول : السُنّة والجماعة ، وهذا يقول : طريق العبودية ، وهذا يقول : طاعة الله ورسوله ، ومعلوم أن الصراط يوصف بهذه الصفات كلها ويسمى بهذه الأسماء كلها ، ولكن كل واحد منهم دلّ المخاطب على النعت الذى به يعرف الصراط وينتفع بمعرفه ذلك النعت .

الوجه الثانى : أن يذكر كل منهم من تفسير الاسم بعض أنواعه أو أعيانه على سبيل التمثيل للمخاطب لا على الحصر والإحاطه ، كما لو سأل أعجمى عن معنى لفظ « الخبز » فأرِىَ رغيفاً وقيل : هذا هو ، فذاك مثال للخبز وإشارة إلى جنسه لا إلى ذلك الرغيف خاصة .

ومن هذا ما جاء عنهم فى قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾ [1] ، فالقول الجامع أن الظالم لنفسه : المُفرِّط بترك مأمور أو فعل محظور ، والمقتصد : القائم بأداء الواجبات وترك المحرّمات ، والسابق بالخيرات : بمنزلة المقرَّب الذى يتقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض حتى يحبه الحق .

ثم إن كلاً منهم يذكر نوعاً من هذا . فإن قال قائل : الظالم ، المؤخر للصلاة عن وقتها ، والمقتصد : المُصَلّى لها فى وقتها ، والسابق : المُصَلّى لها فى أول وقتها حيث يكون التقديم أفضل ، وقال آخر : الظالم لنفسه : هو البخيل الذى لا يصل رحمه ولا تمام [2] زكاته ، والمقتصد : القائم بما يجب عليه من الزكاة وصلة الرحم وقِرَى الضيف والإعطاء فى النائبة ، والسابق : الفاعل المستحب بعد

---

(١) فاطر : ٣٢ (٢) كذا الأصل ولعله : ولا يؤدى تمام زكاته .

الواجب كما فعل الصدِّيق الأكبر حين جاء بماله كله ، ولم يكن مع هذا يأخذ من أحد شيئاً . وقال آخر : الظالم لنفسه : الذى يصوم عن الطعام لا عن الآثام ، والمقتصد : الذى يصوم عن الطعام والآثام ، والسابق : الذى يصوم عن كل ما لا يُقَرِّبه إلى اللّه تعالى - وأمثال ذلك - لم تكن الأقوال [1] متنافية بل كُلٌّ ذكَرَ نوعاً مما تناولته الآية .

الوجه الثالث : أن يذكر أحدهم لنزول الآية سبباً ، ويذكر الآخر سبباً آخر لا ينافى الأول ، ومن الممكن نزولها لأجل السببين جميعاً أو نزولها مرتين ، مرة لهذا ومرة لهذا . وأما ما صَحَّ عن السَلَف أنهم اختلفوا فيه اختلاف تناقض ، فهذا قليل بالنسبة إلى ما لم يختلفوا فيه ، كما أن تنازعهم فى بعض مسائل السُنَّة كبعض مسائل الصلاة والزكاة والصيام والحج والفرائض والطلاق ... ونحو ذلك - لا يمنع أن يكون أصل هذه السُنَن مأخوذاً عن النبى ﷺ ، وجملها منقولة عنه بالتواتر .

وقد تبينَّ أن اللّه تعالى أنزل عليه الكتاب والحكمة ، وأمر أزواج نبيه ﷺ أن يذكرن ما يُتلى فى بيوتهن من آيات اللّه والحكمة . وقد قال غير واحد من السَلَف أن الحكمة هى السُنَّة ، وقد قال ﷺ : « ألاَ إنِّى أوتيتُ الكتاب ومثله معه » . فما ثبت عنه من السُنَّة فعلينا اتباعه سواء قيل : إنه من القرآن ولم نفهمه نحن ، أو قيل : ليس فى القرآن ، كما أن ما اتفق عليه السابقون الأولون والذين اتبعوهم بإحسان فعلينا أن نتبعهم فيه سواء قيل : إنه كان منصوصاً فى السُنَّة ولم يبلغنا ذلك ، أو قيل : إنه مما استنبطوه واستخرجوه باجتهادهم من الكتاب والسُنَّة « انتهت المقدمة » .

* * *

---

(١) جواب : فإن قال قائل .

فصل

فى الآيات ، والأحاديث والآثار فى علو الرب على خلقه

فإذا تبيَّن ذلك فوجوب إثبات العلو للّه تعالى ونحوه يتبين من وجوه :

أحدها : أن يُقال إنَّ القرآن والسُّنَن المستفيضة المتواترة وكلام السابقين والتابعين - بل وسائر القرون الثلاثة - مملوء بما فيه إثبات العلو للّه على عرشه بأنواع من الدلالات ، ووجوه من الصفات ، وأصناف من العبارات ، تارة يُخبر أنه خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش ، وقد ذكر الاستواء على العرش فى سبعة مواضع، وتارة يُخبر بعروج الأشياء وصعودها وارتفاعها إليه كقوله تعالى: ﴿ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْه ﴾ (١) ، ﴿ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾ (٢) ، ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْه ﴾ (٣) ، وقوله : ﴿ إِلَيْه يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ (٤) ، وتارة يُخبر بنزولها منه أو من عنده كقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالحَقِّ ﴾ (٥) ، ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالحَقِّ ﴾ (٦) ، ﴿ حم * تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ﴾ (٧) ، ﴿ حم * تَنْزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللَّه العَزِيزُ الحَكِيم ﴾ (٨) . وتارة يُخبر بأنه الأعلى والعَلِى كقوله تعالى : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ (٩) ، وقوله : ﴿ وَهُوَ العَلِىُّ العَظِيمُ ﴾ (١٠) .

وتارة يُخبر بأنه فى السماء كقوله تعالى : ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ﴾ (١١) فذكر السماء دون الأرض ولم يُعَلِّق بذلك

---

(١) النساء : ١٥٨ (٢) آل عمران : ٥٥ (٣) المعارج : ٤
(٤) فاطر : ١٠ (٥) الأنعام : ١١٤ (٦) النحل : ١٠٢
(٧) فصلت : ١ - ٢ (٨) الجاثية : ١ - ٢ (٩) الأعلى : ١
(١٠) البقرة : ٢٥٥ (١١) الملك : ١٦ -١٧

ألوهية أو غيرها ، كما ذُكرَ فى قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى فِى السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِى الأَرْضِ إِلَهٌ ﴾ (١) ، وقال تعالى ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِى السَّمَوَاتِ وَفِى الأَرْضِ ﴾ (٢) ، وكذلك قال النبى ﷺ : « ألا تأمنونى وأنا أمين مَن فى السماء » ؟ وقال للجارية : « أين الله » ؟ قالت : فى السماء ، قال : « أعتقها فإنها مؤمنة » .

وتارة يجعل بعض الخلق عنده دون بعض ويخبر عمّن عنده بالطاعة كقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ (٣) ، فلو كان موجب العناية معنى عاماً كدخولهم تحت قُدرته ومشيئته وأمثال ذلك ، لكان كل مخلوق عنده ، ولم يكن أحد مستكبراً عن عبادته ، بل مُسَبِّحاً له ساجداً وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ (٤) ، وهو سبحانه وصف الملائكة بذلك رداً على الكفار والمستكبرين عن عبادته ، وأمثال هذا فى القرآن لا يُحصَى إلا بكلفة . وأما الأحاديث والآثار عن الصحابة والتابعين فلا يحصيها إلا الله تعالى .

فلا يخلو : إما أن يكون ما اشتركت فيه هذه النصوص من إثبات علو الله نفسه وعلى خلقه هو الحق ، أو الحق نقيضه ، إذ الحق لا يخرج عن النقيضين ، وإما أن يكون نفسه فوق الخلق ، أو لا يكون فوق الخلق كما تقول الجهمية ، ثم تارة يقولون : لا فوقهم ولا فيهم ، ولا داخل ، ولا خارج ، ولا مباين ، ولا محايث ، وتارة يقولون : هو بذاته فى كل مكان ، وفى المقالتين كلتيهما يدفعون أن يكون هو نفسه فوق خلقه .

---

(١) الزخرف : ٨٤ (٢) الأنعام : ٣

(٣) الأعراف : ٢٠٦ (٤) غافر : ٦٠

فإما أن يكون الحق إثبات ذلك أو نفيه ، فإن كان نفى ذلك هو الحق ، فمعلوم أن القرآن لم يُبيِّن هذا قط لا نصاً ولا ظاهراً ، ولا الرسول ولا أحد من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين ، لا أئمة المذاهب الأربعة ولا غيرهم ، ولا يمكن أحداً أن ينقل عن واحد من هؤلاء أنه نفى ذلك أو أخبر به ، وأما ما نُقِلَ من الإثبات عن هؤلاء فأكثر من أن يُحصى أو يُحصر ، فإن كان الحق النفى دون الإثبات - والكتاب والسُّنَّة والإجماع إنما دل على الإثبات ولم يذكر النفى أصلاً - لزم أن يكون الرسول والمؤمنون لم ينطقوا بالحق فى هذا الباب ، بل نطقوا بما يدل - إما نصاً وإما ظاهراً - على الضلال والخطأ المناقض للهُدى والصواب .

ومعلوم أن مَن اعتقد هذا فى الرسول والمؤمنين فله أوفر حظ من قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ من بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ المُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ، وَسَاءَتْ مَصِيراً ﴾ (١) .

● دعوى مخالفة النصوص لظواهرها :

فإن القائل إذا قال : هذه النصوص أُريدَ بها خلاف ما يُفهم منها ، أو خلاف ما دلَّتْ عليه ، أو أنه لم يرد إثبات علو اللّه نفسه على خلقه ، وإنما أُريدَ بها علو المكانة ، ونحو ذلك - كما قد بسطنا الكلام على هذا فى غير هذا الموضع - فيقال له : فكان يجب أن يُبيِّن للناس الحق الذى يجب التصديق به باطناً وظاهراً ، بل ويُبيِّن لهم ما يدلهم على أن هذا الكلام لم يُرَدْ به مفهومه ومقتضاه ، فإن غاية ما يُقدَّر أنه تكلم بالمجاز المخالف للحقيقة ، والباطن المخالف للظاهر ، ومعلوم باتفاق العقلاء أن المخاطب المبيِّن إذا تكلم فلا بد أن يقرن بخطابه ما يدل على إرادة المعنى المجازى ، فإذا كان الرسول - المبلِّغ المبيِّن الذى بَيَّنَ للناس

---

(١) النساء : ١١٥

ما نزل إليهم - يعلم أن المراد بالكلام خلاف مفهومه ومقتضاه ، كان عليه أن يقرن بخطابه ما يصرف القلوب عن فهم المعنى الذى لم يرد ، لا سيما إذا كان باطلاً لا يجوز اعتقاده فى اللّه ، فإن عليه أن ينهاهم عن أن يعتقدوا فى اللّه ما لا يجوز اعتقاده إذا كان ذلك مخوفاً عليهم ، ولو لم يخاطبهم بما يدل على ذلك ، فكيف إذا كان خطابه هو الذى يدلهم على ذلك الاعتقاد الذى تقول النفاة هو اعتقاد باطل ؟ فإذا لم يكن فى الكتاب ولا السُنَّة ولا كلام أحد من السَلَف والأئمة ما يوافق قول النفاة أصلاً ، بل هم دائماً لا يتكلمون إلا بالإثبات . امتنع حينئذ أن لا يكون مرادهم الإثبات ، وأن يكون النفى هو الذى يعتقدونه ويعتمدونه . وهم لم يتكلموا به قط ولم يُظهروه ، وإنما أظهروا ما يخالفه وينافيه ، وهذا كلام مبين لا مخلص لأحد عنه ، لكن للجهمية المتكلمة هنا كلام ، وللجهمية المتفلسفة كلام .

* * *

● مذاهب متفلسفة القرامطة فى الصفات :

أما المتفلسفة القرامطة[1] فيقولون : إن الرسل كلّموا الخلق بخلاف ما هو الحق ، وأظهروا لهم خلاف ما يبُطنون . وربما يقولون : إنهم كذبوا لأجل مصلحة العامة فإن مصلحة العامة لا تقوم إلا بإظهار الإثبات ، وإن كان فى نفس الأمر باطلاً . وهذا - مع ما فيه من الزندقة البيِّنة والكفر الواضح قول متناقض فى نفسه ، فإنه يقال : لو كان الأمر كما تقولون والرسل من جنس رؤسائكم ، لكان خواص الرسل يطلعون على ذلك ، ولكانوا يطلمون خواصهم على هذا الأمر ، فكان يكون النفى مذهب خاصة الأمة وأكملها عقلاً وعلماً ومعرفة ، والأمر بالعكس ، فإن مَن تأمل كلام السَلَف والأئمة وجد أعلم الأمة عند الأمة كأبى بكر وعمر وعثمان وعلىّ وابن مسعود ومعاذ بن جبل وعبد اللّه بن سلام وسلمان الفارسى وأُبَىّ بن كعب وأبى الدرداء وعبد اللّه بن عباس وعبد اللّه بن عمر وعبد اللّه بن عمرو ... وأمثالهم ، هم أعظم الخلق إثباتاً ، وكذلك أفضل التابعين

---

(١) للتعريف بالقرامطة انظر هامش ١٧٩ من هذا الجزء (البلتاجى) .

مثل سعيد بن المسيب وأمثاله ، والحسن البصرى وأمثاله ، وعلىّ بن الحسين وأمثاله ، وأصحاب ابن مسعود وأصحاب ابن عباس ، هم من أجَلِ التابعين ، بل النقول عن هؤلاء فى الإثبات يجبن عن إظهاره كثير من الناس ، وعلى ذلك تأوّل يحيى بن عمار وصاحبه شيخ الإسلام أبو إسماعيل الأنصارى ما يُروى أن من العلم كهيئة المكنون لا يعرفه إلا أهل العلم بالله ، فإذا ذكروه لم ينكره إلا أهل الغرّة بالله ، تأوّلوا ذلك على ما جاء من الإثبات ، لأن ذلك ثابت عن رسول ﷺ والسابقين والتابعين لهم بإحسان ، بخلاف النفى فإنه لا يؤخذ عنهم ، ولا يمكن حمله عليه .

وقد جمع علماء الحديث من النقول عن السَلَف فى الإثبات ما لا يحصى عدده إلاّ رب السموات ، ولم يقدر أحد أن يأتى عنهم فى النفى بحرف واحد ، إلا أن يكون من الأحاديث المختلقة التى ينقلها مَن هو أبعد الناس عن معرفة كلامهم .

● تمسك المتأولين بالمجمل دون المبين :

ومن هؤلاء مَن يتمسك بجملات سمعها ، بعضها كذب وبعضها صدق ، مثل ما ينقلونه عن عمر أنه قال : كان النبى ﷺ وأبو بكر يتحدثان ، وكنت كالزنجى بينهما ، فهذا كذب باتفاق أهل العلم بالأثر ، وبتقدير صدقه فهو مجمل ، فإذا قال أهل الإثبات : كان ما يتكلمان فيه من هذا الباب لموافقته ما نُقِلَ عنهما ، كان أولى من قول النفاة : إنهما يتكلمان بالنفى ، وكذلك حديث جراب أبى هريرة لما قال : حفظتُ عن رسول الله ﷺ جرابين ، أما أحدهما فبثثته فيكم ، وأما الآخر فلو بثثته لقطعتم هذا البلعوم - فإن هذا حديث صحيح لكنه مجمل قد جاء مفسراً أن الجراب الآخر كان فيه حديث الملاحم والفتن ، ولو قُدِّرَ أن فيه ما يتعلق بالصفات فليس فيه ما يدل على النفى ، بل الثابت المحفوظ من أحاديث أبى هريرة كحديث إتيانه يوم القيامة ، وحديث النزول والضحك ... وأمثال ذلك كلها على الإثبات ، ولم يُنقل عن أبى هريرة حرف واحد فى النفى من جنس قول النفاة .

● مذهب الجهمية فى الصفات :

وأما الجهمية المتكلمة فيقولون : إن القرينة الصارفة لهم عما دلّ عليه الخطاب هو العقل ، فاكتفى بالدلالة العقلية الموافقة لمذهب النفاة ، فيقال لهم :

أولاً : فحينئذ إذا كان ما تكلم به إنما يفيدهم مجرد الضلال وإنما يستفيدون الهُدى من عقولهم ، كان الرسول قد نصب لهم أسباب الضلال ، ولم ينصب لهم أسباب الهُدى ، وأحالهم فى الهُدى على نفوسهم . فيلزم على قولهم أنّ تركهم فى الجاهليه خير لهم من هذه الرسالة التى لم تنفعهم بل ضرتهم .

ويقال لهم ثانياً : فالرسول ﷺ قد بيّن الإثبات الذى هو أظهر فى العقل من قول النفاة ، مثل ذكره لخلق اللّه وقُدرته ومشيئته وعلمه ... ونحو ذلك من الأمور التى تُعلم بالعقل أعظم مما يُعلم نفى الجهمية ، وهو لم يتكلم بما يناقض هذا الإثبات ، فكيف يحيلهم على مجرد العقل فى النفى الذى هو أخفى وأدق ، وكلامه لم يدل عليه بل دلّ على نقيضه وضده ، ومَن نسب هذا إلى الرسول ﷺ فاللّه حسيبه على ما يقول .

والمراتب ثلاث : إما أن يتكلم بالهُدى ، أو بالضلال ، أويسكت عنهما . ومعلوم أن السكوت عنهما خير من التكلم بما يضل ، وهنا يُعرف بالعقل أن الإثبات لم يسكت عنه بل بينّه ، وكان ما جاء به السمع موافقاً للعقل ، فكان الواجب فيما ينفيه العقل ، أن يتكلم فيه بالنفى كما فعل فيما يُثبته العقل ، وإذا لم يفعل ذلك كان السكوت عنه أسلم للأمة

أما إذا تكلم فيه بما يدل على الإثبات ، وأراد منهم أن لا يعتقدوا إلا النفى ، لكون مجرد عقولهم تُعرّفهم به ، فإضافة هذا إلى الرسول ﷺ من أعظم أبواب الزندقة والنفاق .

● موافقة العقل للنصوص ومذهب فرعون :

ويقال لهم ثالثاً : مَن الذى سلَّم لكم أن العقل يوافق مذهب النفاة ، بل العقل الصريح إنما يوافق ما أثبته الرسول ، وليس بين المعقول الصريح والمنقول الصريح تناقض أصلاً ، وقد بسطنا هذا فى مواضع بيَّنا فيها أن ما يذكرون من المعقول المخالف لما جاء به الرسول ﷺ ، وإنما هو جهل وضلال تقلده متأخروهم عن متقدميهم ، وسموا ذلك عقليات ، إنما هى جهليات ، ومَن طلب من تحقيق ما قاله أئمة الضلال بالمعقول لم يرجع إلا إلى مجرد تقليدهم ، فهم يكفرون بالشرع ويخالفون العقل تقليداً لمن توهموا أنه عالم بالعقليات ، وهم مع أئمتهم الضُلاَّل كقوم فرعون معه ، حيث قال : ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ﴾ (١) ، قال تعالى عنه : ﴿ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِى الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ * فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِى الْيَمِّ ، فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنْصَرُونَ * وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِى هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ (٢) ، وفرعون هو إمام النفاة ولهذا صرَّح محققو النفاة بأنهم على قوله ، كما يُصرِّح به الاتحادية من الجهمية من النفاة ، إذ هو الذى أنكر العلو وكذَّب موسى وأنكر تكليم الله لموسى ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِى صَرْحاً لَّعَلِّى أَبْلُغُ الأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّى لأَظُنُّهُ كَاذِباً ﴾ (٣) ، والله تعالى قد أخبر عن فرعون أنه أنكر الصانع وقال : ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٤) وطلب أن يصعد إلى إله موسى ، فلو لم يكن موسى أخبره أنَّ إلهه فوق لم يقصد ذلك ، فإنه هو لم يكن مقراً به ، فإذا لم يخبره موسى به لم يكن إثبات العلو لا منه ولا من موسى عليه الصلاة والسلام . فلا يقصد الاطلاع ولا يحصل به ما قصده من التلبيس على قومه ،

---

(١) الزخرف : ٥٤ (٢) القصص : ٣٩ - ٤٢

(٣) غافر : ٣٦ - ٣٧ (٤) الشعراء : ٢٣

بأنه صعد إلى إله موسى ، ولكان صعوده إليه كنزوله إلى الآبار والأنهار ، وكان ذلك أهون عليه ، فلا يحتاج إلى تكلف الصرح .

وأما نبينا ﷺ فإنه لما عُرِجَ به ليلة الإسراء ووجد فى السماء الأولى آدم عليه السلام ، وفى الثانية يحيى وعيسى ، ثم فى الثالثة يوسف ، ثم فى الرابعة إدريس ، ثم فى الخامسة هارون ، ثم وجد موسى [1] ، ثم عرج إلى ربه وفرض عليه خمسين صلاة ، ثم رجع إلى موسى فقال له : ارجع إلى ربك فاسأل التخفيف لأمتك ، فإن أمتك لا تطيق ذلك ، قال : « فرجعتُ إلى ربى فسألته التخفيف لأمتى » وذكر أنه رجع إلى موسى ثم رجع إلى ربه مراراً ، فصدَّق موسى فى أنَّ ربه فوق السموات ، وفرعون كذَّب موسى فى ذلك .

والجهمية النفاة موافقون لآل فرعون أئمة الضلال . وأهل السُنَّة والإثبات موافقون لآل إبراهيم أئمة الهُدى ، وقال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ، وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ [2] ، وموسى ومحمد من آل إبراهيم ، بل هم سادات آل إبراهيم صلوات الله عليهم أجمعين .

● مسألة علو الخالق على خلقه :

الوجه الثانى : فى تبيين وجوب الإقرار بالإثبات ، وعلو الله على السموات أن يقال : من المعلوم أنَّ الله تعالى أكمل الدين وأتم النعمة ، وأنَّ الله أنزل الكتاب تبياناً لكل شىء ، وأنَّ معرفة ما يستحقه الله وما تنزه عنه هو من أجَلِ أمور الدين وأعظم أصوله ، وأنَّ بيان هذا وتفصيله أولى من كل شىء .. فكيف يجوز أن يكون هذا الباب لم يُبيِّنه الرسول ﷺ ولم يُفصِّله ولم يُعلِّم أمته

---

(١) الظاهر أنه سقط من هذا الموضع : أنه وجد موسى فى السماء السادسة ، وإبراهيم فى السابعة .

(٢) الأنبياء : ٧٢ - ٧٣

ما يقولون فى هذا الباب ؟ وكيف يكون الدين قد كمل وقد تُركوا على البيضاء ، ولا يدرون بماذا يعرفون ربهم ، أبما تقوله النفاة ؟ أو بأقوال أهل الإثبات ؟

الثالث : أن يقال : كل مَن فيه أدنى محبة للعلم أو أدنى محبة للعبادة لا بد أن يخطر بقلبه هذا الباب ويقصد فيه الحق ومعرفة الخطأ من الصواب ، فلا يُتصور أن يكون الصحابة والتابعون كلهم كانوا معرضين عن هذا لا يسألون عنه ، ولا يشتاقون إلى معرفته ، ولا تطلب قلوبهم الحق منه ، وهم ليلاً ونهاراً يتوجهون بقلوبهم إليه ويدعونه تضرعاً وخيفة ورغَباً ورهباً ، والقلوب مجبولة مفطورة على طلب العلم . فهذا ومعرفة الحق فيه وهى مشتاقة إليه أكثر من شوقها إلى كثير من الأمور ، ومع الإرادة الجازمة والقُدرة يجب حصول المراد ، وهم قادرون على سؤال الرسول ﷺ وسؤال بعضهم بعضاً ، وقد سألوه عما هو دون هذا .. سألوه : هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فأجابهم ، وسأله أبو رزين : أيضحك ربنا ؟ فقال : نعم ، فقال : لن نعدم من رب يضحك خيراً . ثم إنهم لما سألوه عن الرؤية قال : « إنكم سترون ربكم كما ترون الشمس والقمر » ، فشبَّه الرؤية بالرؤية . والنفاة لا يقولون : يُرَى كما تُرَى الشمس والقمر ، بل قولهم الحقيقى أنه لا يُرَى بحال ، ومَن قال يُرَى - موافقة لأهل الإثبات ومنافقة لهم - فسَّرَ الرؤية بمزيد علم فلا تكون كرؤية الشمس والقمر .

● نصوص الكتاب والسُنَّة الإثبات لا النفى :

والمقصود هنا أنهم لا بد أن يسألوه عن ربهم الذى يعبدونه - إن كان ما تقوله الجهمية حقاً - وإذا سألوه فلا بد أن يجيبهم . ومن المعلوم بالاضطرار أن ما تقوله الجهمية النفاة لم ينقله عنه أحد من أهل التبليغ عنه وإنما نقلوا عنه ما يوافق قول أهل الإثبات .

الوجه الرابع : أن يقال : إما أن يكون اللّه يحب منا أن نعتقد قول النفاة ، أو نعتقد قول أهل الإثبات ، أو لا نعتقد واحداً منهما . فإن كان مطلوبه منا اعتقاد قول النفاة - وهو أنه لا داخل العالَم ولا خارجه ، وأنه ليس فوق

السموات رب ولا على العرش إله ، وأنّ محمداً لم يُعْرَج به إلى الله وإنما عُرِجَ به إلى السموات فقط لا إلى الله ، فإن الملائكة لا تعرج إلى الله بل إلى ملكوته ، وأن الله لا ينزل منه شيء ولا يصعد إليه شيء ... وأمثال ذلك ، وإن كانوا يعبرون عن ذلك بعبارات مبتدعة فيها إجمال وإبهام وإيهام كقولهم : ليس بمتحيز ولا جسم ولا جوهر ، ولا هو فى جهة ولا مكان ، وأمثال هذه العبارات التى تفهم منها العامة تنزيه الرب تعالى عن النقائص ، ومقصدهم هم أنه ليس فوق السموات رب ولا على العرش إله يُعبد ، ولا عُرِجَ بالرسول إلى الله ، وإنما المقصود أنه إن كان الذى يحبه الله لنا أن نعتقد هذا النفى ، فالصحابة والتابعون أفضل منا فقد كانوا يعتقدون هذا النفى والرسول ﷺ كان يعتقده ، وإذا كان الله ورسوله يرضاه لنا وهو إما واجب علينا أو مستحَب لنا ، فلا بد أن يأمرنا الرسول ﷺ بما هو واجب علينا ، ويدنينا إلى ما هو مستحَب لنا ، ولا بد أن يظهر عنه وعن المؤمنين ما فيه إثبات لمحبوب الله ومرضاته وما يُقرِّب إليه لا سيما مع قوله عَزَّ وجَلَّ : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾ (١) ، لا سيما والجُهمية تجعل هذا أصل الدين وهو عندهم التوحيد الذى لا يخالفه إلا شقى ، فكيف لا يُعلِّم الرسول ﷺ أمته التوحيد ؟ وكيف لا يكون التوحيد معروفاً عند الصحابة والتابعين ؟ والفلاسفة والمعتزلة ومَن اتبعهم يسمون مذهب النفاة التوحيد ، وقد سمى صاحب « المرشدة » أصحابه الموحدين إذ عندهم مذهب النفاة هو التوحيد ، وإذا كان كذلك ، كان من المعلوم أنه لا بد أن يُبيِّنه الرسول ﷺ ، وقد عُلِمَ بالاضطرار أن الرسول ﷺ وأصحابه لم يتكلموا بمذهب النفاة . فعُلِمَ أنه ليس بواجب ولا مستحَب ، بل عُلِمَ أنه ليس من التوحيد الذى شرعه الله تعالى لعباده .

وإن كان يحب منا مذهب الإثبات وهو الذى أمرنا به ، فلا بد أيضاً أن يُبيِّن ذلك لنا ، ومعلوم أن فى الكتاب والسُنَّة من إثبات العلو والصفات أعظم مما

---

(١) المائدة : ٣

فيهما من إثبات الوضوء والتيمم والصيام وتحريم ذوات المحارم وخبيث المطاعم ... ونحو ذلك من الشرائع . فعلى قول أهل الإثبات يكون الدين كاملاً ، والرسول ﷺ مبلّغاً مبيّناً ، والتوحيد عند السَلف مشهوراً معروفاً . والكتاب والسُنّة يُصَدّق بعضه بعضاً ، والسَلف خير هذه الأمة ، وطريقهم أفضل الطُرق ، والقرآن كله حق ليس فيه إضلال ، ولا دلّ على كفر ومحال ، بل هو الشفاء والهُدى والنور . وهذه كلها لوازم ملتزمة ونتائج مقبولة ، فقولهم مؤتلف غير مختلف ، ومقبول غير مردود .

• إنَّ اللّه لا يحب لنا الجهل ولا الحيرة :

وإن كان الذى يحبه اللّه ألا نثبت ولا ننفى ، بل نبقى فى الجهل البسيط وفى ظلمات بعضها فوق بعض لا نُفَرّق الحق من الباطل ولا الهُدى من الضلال ولا الصدق من الكذب ، بل نقف بين المثبتة والنفاة موقف الشاكين الحيارى ، ﴿ مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ ﴾ (١) ، لا مُصَدّقين ولا مُكَذّبين - لزم من ذلك أن يكون اللّه يحب منا عدم العلم بما جاء به الرسول ﷺ ، وعدم العلم بما يستحقه اللّه سبحانه وتعالى من الصفات التامات ، وعدم العلم بالحق من الباطل ، ويحب منا الحيرة والشك ، ومن المعلوم أن اللّه لا يحب الجهل ولا الشك ولا الحيرة ولا الضلال ، وإنما يحب الدين والعلم واليقين . وقد ذَمّ الحيرة بقوله : ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ من دُونِ اللّهِ مَا لا يَنفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللّهُ كَالَّذِى اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فى الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الهُدَى ائْتِنَا ، قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الهُدَى ، وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ العَالَمِينَ * وَأَنْ أَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَاتَّقُوهُ ، وَهُوَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (٢) ، وقد أمرنا اللّه تعالى أن نقول : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ﴾ (٣) .

---

(١) النساء : ١٤٣ (٢) الأنعام : ٧١ - ٧٢ (٣) الفاتحة : ٦ - ٧

• الرد على الواقفة فى مسألة الصفات :

وفى صحيح مسلم وغيره عن عائشة رضى الله عنها : أنَّ النبى ﷺ كان إذا قام من الليل يُصَلِّى يقول : « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لما اختُلِفَ فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدى مَن تشاء إلى صراط مستقيم » ، فهو يسأل ربه أن يهديه لما اختُلف فيه من الحق ، فكيف يكون محبوب الله عدم الهُدى فى مسائل الخلاف ؟ وقد قال الله له : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْماً ﴾ (١) ، وما يذكره بعض الناس عنه أنه قال : « زدنى فيك تحيراً » كذب باتفاق أهل العلم بحديثه ، بل هذا سؤال مَن هو حائر وقد سأل المزيد من الحيرة ، ولا يجوز لأحد أن يسأل ويدعو بمزيد من الحيرة إذا كان حائراً ، بل يسأل الهُدى والعلم ، فكيف بمن هو هادى الخلق من الضلال . وإنما يُنقل هذا عن بعض الشيوخ الذين لا يُقتدى بهم فى مثل هذا - إن صح النقل عنه - فهذا يلزم عليه أمور :

أحدها : أنَّ مَن قال هذا فعليه أن ينكر على النفاة فإنهم ابتدعوا ألفاظاً ومعانى لا أصل لها فى الكتاب ولا فى السُّنَّة . وأما المثبتة إذا اقتصروا على النصوص فليس له الإنكار عليهم - وهؤلاء الواقفة هم فى الباطن يوافقون النفاة أو يقرونهم ، وإنما يعارضون المثبتة ، فعُلِمَ أنهم أقروا أهل البدعة ، وعادوا أهل السُّنَّة .

الثانى : أن يُقال : عدم العلم بمعانى القرآن والحديث ليس مما يحب الله ورسوله فهذا القول باطل .

الثالث : أن يُقال : الشك والحيرة ليست محمودة فى نفسها باتفاق المسلمين ، غاية ما فى الباب أن مَن لم يكن عنده علم بالنفى ولا الإثبات يسكت .

---

(١) طه : ١١٤

فأما مَن علم الحق بدليله الموافق لبيان رسوله ﷺ فليس للواقف الشاك الحائر أن ينكر على العالِم الجازم المستبصر المتبع للرسول العالِم بالمنقول والمعقول .

الرابع : أن يُقال : السَلف كلهم أنكروا على الجهمية النفاة وقالوا بالإثبات وأفصحوا به ، وكلامهم فى الإثبات والإنكار على النفاة أكثر من أن يمكن إثباته فى هذا المكان ، وكلام الائمة المشاهير - مثل مالك والثورى والأوزاعى وأبى حنيفة وحماد زيد وحماد بن سلمة وعبد الرحمن بن مهدى ووكيع بن الجراح والشافعى وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وأبى عبيدة وأئمة أصحاب مالك وأبى حنيفة والشافعى وأحمد - موجود كثير لا يحصيه أحد .

● كلام مالك فى الاستواء والعلو :

وجواب مالك فى ذلك صريح فى الإثبات ، فإن السائل قال له : يا أبا عبد الله .. ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى ﴾ (١) ، كيف استوى ؟ فقال مالك : « الاستواء معلوم ، والكيف مجهول - وفى لفظ : استواؤه معلوم أو معقول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بِدعة » . فقد أخبر رضى الله عنه بأن نفس الاستواء معلوم ، وأن كيفية الاستواء مجهولة ، وهذا بعينه قول أهل الإثبات .

وأما النفاة . فما يثبتون استواء حتى تُجهل كيفيته ، بل عند هذا القائل الشاك وأمثاله أن الاستواء مجهول غير معلوم ، وإن كان الاستواء مجهولاً لم يحتج أن يقال : الكيف مجهول ، لا سيما إذا كان الاستواء منفياً ، فالمنفى المعدوم لا كيفية له حتى يقال : هى مجهولة أو معلومة ، وكلام مالك صريح فى إثبات الاستواء وأنه معلوم ، وأن له كيفية ، لكن تلك الكيفية مجهولة لنا لا نعلمها نحن . ولهذا بدَّع السائل الذى سأله عن هذه الكيفية ، فإن السؤال

---

(١) طه : ٥

إنما يكون عن أمر معلوم لنا ونحن لا نعلم كيفية استوائه ، وليس كل ما كان معلوماً وله كيفية تكون تلك الكيفية معلومة لنا ، يبيِّن ذلك أن المالكية وغير المالكية نقلوا عن مالك أنه قال : « اللّه فى السماء ، وعلمه فى كل مكان » ، حتى ذكر ذلك مكى فى كتاب التفسير الذى جمعه من كلام مالك ونقله أبو عمر والطلمنكى وأبو عمر بن عبد البر وابن أبى زيد فى المختصر وغير واحد ، ولو كان مالك من الواقفة أو النفاة لم ينقل هذا الإثبات . والقول الذى قاله مالك قاله قبله ربيعة بن عبد الرحمن شيخه كما رواه عنه سفيان بن عيينة ، وقال عبد العزيز بن عبد اللّه بن أبى سلمة الماجشونى كلاماً طويلاً يقرر مذهب الإثبات ويرد على النفاة ، وقد ذكرناه فى غير هذا الموضع .

• كلام أئمة السَلَف فى الإثبات :

وكلام المالكية فى ذم الجهمية النفاة مشهور فى كتبهم ، وكلام أئمة المالكية وقدمائهم فى الإثبات كثير مشهور لأن علماءهم حكوا إجماع أهل السُنَّة والجماعة على أن اللّه بذاته فوق عرشه . وابن أبى زيد إنما ذكر ما ذكره سائر أئمة السُنَّة ، ولم يكن من أئمة المالكية مَن خالفَ ابن أبى زيد فى هذا ، وهو إنما ذكر هذا فى مقدمة الرسالة لتلقن لجميع المسلمين لانه عند أئمة السُنَّة من الاعتقادات التى يلقنها كل أحد . ولم يرد على ابن أبى زيد فى هذا إلا مَن كان من أتباع الجهمية النفاة لم يعتمد مَن خالفه على أنه بدعة ، ولا أنه مخالف للكتاب والسُنَّة ، ولكن زعم مَن خالف ابن أبى زيد وأمثاله إنما خالفه مخالف للعقل [1] وقالوا : إن ابن أبى زيد لم يكن يُحسن الكلام الذى يُعرَّف فيه ما يجوز على اللّه وما لا يجوز . والذى أنكروا على ابن أبى زيد وأمثاله من المتأخرين تلقوا هذا الإنكار عن متأخرى الأشعرية [2] كأبى المعالى وأتباعه ،

---

(١) كذا فى الأصل وفى هامشه الظاهر : إنما خالفه لمخالفته العقل .

(٢) الأشعرية : مذهب إسلامى ، أسسه أبو الحسن على الأشعرى المتوفى سنة ٣٢٤ هـ ، وكان الأشعرى معتزلياً ثم جاهر بخلافهم ، ولد فى البصرة وتوفى ببغداد ، ألف قرابة ثلاثمائة كتاب منها : « الإبانة عن أصول الديانة » و « اللمع فى الرد على أهل الزيغ والبدع » و « مقالات الإسلاميين » . (البلتاجى)

وهؤلاء تلقوا هذا الإنكار عن الأصول التى شركوا فيها المعتزلة ونحوهم من الجهمية ، فالجهمية من المعتزلة وغيرهم هم أصل هذا الإنكار .

وسَلَف الأمة وأئمتها متفقون على الإثبات ، رادون على الواقفة والنفاة ، مثل ما رواه البيهقى وغيره عن الأوزاعى قال : كنا - والتابعون متوافرون - نقول : إن اللّه فوق عرشه ، ونؤمن بما وردت به السُنّة من صفاته .

• إنكار الجهمية وحدهم أنَّ اللّه فى السماء :

وقال أبو مطيع البلخى فى كتاب « الفقه الأكبر » : سألتُ أبا حنيفة عمَّن يقول : لا أعرف ربى فى السماء أو فى الأرض ، قال : كفر ، لأن اللّه يقول : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى ﴾ (١) ، وعرشه فوق سبع سمواته ، فقلت : إنه يقول : على العرش ، ولكن لا أدرى العرش فى السماء أو فى الأرض ؟ ، فقال : إنه إذا أنكر أنه فى السماء كفر ، لأنه تعالى فى أعلى عليين ، وأنه يُدعى من أعلى لا من أسفل . قال عبد اللّه بن نافع : كان مالك بن أنس يقول : اللّه فى السماء وعلمه فى كل مكان . وقال معدان : سألت سفيان الثورى عن قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ (٢) قال : علمه . وقال حماد بن زيد فيما ثبت عنه من غير وجه - رواه ابن أبى حاتم والبخارى وعبد اللّه بن أحمد وغيرهم - : إنما يدور كلام الجهمية على أن يقولوا : ليس فى السماء شىء . وقال على بن الحسن بن شقيق : قلت لعبد اللّه بن المبارك : بماذا نعرف ربنا ؟ قال : بأنه فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه . قلت : بحد ؟ قال : بحد لا يعلمه غيره ، وهذا مشهور عن ابن المبارك ثابت عنه من غير وجه ، وهو نظر صحيح ثابت عن أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وغير واحد من الأئمة . وقال رجل لعبد اللّه بن المبارك : يا أبا عبد الرحمن ، قد خفت اللّه من كثرة ما أدعو على الجهمية . قال : لا تخف ، فإنهم يزعمون أنَّ إلهك الذى فى السماء ليس

---

(١) طه : ٥ (٢) الحديد : ٤

بشيء . وقال جرير بن عبد الحميد : كلام الجُهمية أوله شهد وآخره سم ، وإنما يحاولون أن يقولوا ليس فى السماء إله . رواه ابن أبى حاتم ، ورواه هو وغيره بأسانيد ثابتة عن عبد الرحمن بن مهدى قال : إن الجهمية أرادوا أن ينفوا أن يكون الله كلّم موسى بن عمران ، وأن يكون على العرش ، أرى أن يُستتابوا فإن تابوا وإلا ضربت أعناقهم . وقال يزيد بن هارون : مَن زعم أن الله على العرش استوى على خلاف ما يقر فى قلوب العامة فهو جهمى . وقال سعيد بن عامر الضبعى - وذُكِرَ عنده الجهمية فقال هم : شر قول من اليهود والنصارى ، قد أجمع أهل الأديان مع المسلمين أن الله على العرش وقالوا هم : ليس عليه شيء . وقال عباد بن العوّام الواسطى : كلمتُ بشر المريسى وأصحابه فرأيتُ آخر كلامهم ينتهى إلى أن يقولوا : ليس فى السماء شيء ، أرى أن لا يناكحوا ولا يوارثوا . وهذا كثير من كلامهم .

• صفة العلو على الخلق :

وهكذا ذكر أهل الكلام - الذين ينقلون مقالات الناس - مقالة أهل السُنّة وأهل الحديث ، كما ذكره أبو الحسن الأشعرى فى كتابه الذى صنّفه فى اختلاف المصلّين ، ومقالات الإسلاميين ، فذكر فيه أقوال الخوارج والرافضة والمعتزلة والمرجئة وغيرهم . ثم قال : ذكر مقالة أهل السُنّة وأصحاب الحديث وجملة قولهم : الإقرار بالله وملائكته وكتبه ورُسُله وبما جاء من عند الله ، وبما رواه الثقات عن رسول الله ﷺ لا يردون من ذلك شيئاً ... إلى أن قال : وأنّ الله على عرشه كما قال : ﴿ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾ (١) ، وأنّ له يدين بلا كيف كما قال تعالى : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ (٢) ، وأقروا أن لله علما كما قال : ﴿ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾ (٣) ، ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴾ (٤) ،

---

(١) طه : ٥
(٢) سورة ص : ٧٥
(٣) النساء : ١٦٦
(٤) فاطر : ١١

وأثبتوا السمع والبصر ، ولم ينفوا ذلك عن الله كما نفته المعتزلة ، وقالوا : إنه لا يكون فى الأرض خير ولا شر إلاّ ما شاء الله ، وأن الأشياء تكون بمشيئة الله ، كما قال : ﴿ وَمَا تَشَاؤُنَ إِلَا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ (١) ... إلى أن قال : ويقولون : إن القرآن كلام الله غير مخلوق ، ويُصَدِّقون بالأحاديث التى جاءت عن رسول الله ﷺ مثل : « إنَّ الله ينزل إلى سماء الدنيا فيقول : هل من مستغفر فأغفر له » كما جاء فى الحديث .

ويقرون أنَّ الله يجىء يوم القيامة كما قال : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ (٢) ، وأنَّ الله يقرب من خلقه كيف شاء كما قال : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ (٣) ... وذكر أشياء كثيرة ، إلى أن قال : فهذه جملة ما يأمرون به ويستعملونه ويرونه ، وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول وإليه نذهب .

• كلام الأشعرى فى الاستواء :

قال الأشعرى أيضاً فى مسألة الاستواء : قال أهل السُنَّة وأصحاب الحديث : ليس بجسم ، ولا يشبه الأشياء ، وأنه على عرشه كما قال : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ (٤) ، ولا نتقدم بين يدى الله فى القول ، بل نقول : استوى بلا كيف ، وأنه له يدين بلا كيف كما قال تعالى : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ (٥) ، وأن الله ينزل إلى سماء الدنيا كما جاء فى الحديث .

قال : وقالت المعتزلة : استوى على عرشه بمعنى استولى . وقال الأشعرى أيضاً فى كتاب « الإبانة فى أصول الديانة » فى باب الاستواء : إن قال قائل : ما تقولون فى الاستواء ؟ قيل : نقول له : إن الله مستو على عرشه كما قال : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ (٦) ، وقال : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ (٧) ، وقال : ﴿ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ (٨) ، وقال حكاية عن فرعون :

---

(١) الإنسان : ٣٠ (٢) الفجر : ٢٢ (٣) سورة ق : ١٦
(٤) طه : ٥ (٥) سورة ص : ٧٥ (٦) طه : ٥
(٧) فاطر : ١٠ (٨) النساء : ١٥٨

﴿ يَاهَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمٰوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِباً ﴾ (١) ، كذّب فرعون موسى في قوله : إنَّ اللّه فوق السموات ، وقال اللّه تعالى : ﴿ ءَأَمِنْتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾ (٢) ، فالسموات فوقها العرش ، وكل ما علا فهو سماء وليس إذا قال : ﴿ ءَأَمِنْتُم مَّن فِي السَّمَاءِ ﴾ يعني جميع السموات ، وإنما أراد العرش الذي هو أعلا السموات ، ألا ترى أنه ذكر السموات فقال : ﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً ﴾ (٣) ولم يرد أنه يملأ السموات جميعاً ، ورأينا المسلمين جميعاً يرفعون أيديهم إذا دعوا نحو السماء لأن اللّه مستو على العرش الذي هو فوق السموات ، فلولا أنَّ اللّه على العرش لم يرفعوا أيديهم نحو العرش . وقد قال قائلون من المعتزلة والجهمية والحرورية : إنَّ معنى « استوى » استولى وملك وقهر ، وأنَّ اللّه في كل مكان ، وجحدوا أن يكون اللّه على عرشه كما قال أهل الحق ، وذهبوا في الاستواء إلى القُدرة ، فلو كان كما قالوا كان لا فرق بين العرش والأرض السابعة ، لأن اللّه قادر على كل شيء والأرض فاللّه قادر عليها وعلى الحشوش والأخلية ، فلو كان مستوياً على العرش بمعنى الاستيلاء لجاز أن يقال : هو مستو على الأشياء كلها وعلى الحشوش والأخلية ، فبطل أن يكون معنى الاستواء على العرش الاستيلاء الذي هو عام في الأشياء كلها ، وقد نقل هذا عن الأشعري غير واحد من أئمة أصحابه كابن فورك والحافظ ابن عساكر في كتابه الذي جمعه في « تبيين كذب المفتري فيما ينسب إلى الشيخ أبي الحسن الأشعري » ، وذكر اعتقاده الذي ذكره في « الإبانة » وقوله فيه : فإن قال قائل : قد أنكرتم قول المعتزلة والقدرية والجهمية والحلولية والرافضة والمرجئة فعرفونا قولكم الذي به تقولون ، وديانتكم التي بها تدينون .. قيل له : قولنا الذي به نقول ، وديانتنا التي ندين بها : التمسك بكتاب اللّه تعالى وسُنَّة نبيه ﷺ ، وما رُوِي عن الصحابة

---

(١) غافر : ٣٦ - ٣٧ (٢) الملك : ١٦ (٣) نوح : ١٦

والتابعين ، وأئمة الحديث ، ونحن بذلك معتصمون ، وبما كان عليه أحمد بن حنبل - نضر الله وجهه - قائلون ، ولما خالف فيه مجانبون لأنه الإمام الفاضل ، والرئيس الكامل الذى أبان الله به الحق عند ظهور الضلال ، وأوضح المنهاج وقمع به بدع المبتدعين وزيغ الزائغين وشك الشاكين ، ورحمة الله عليه من إمام مقدم وكبير مفهم ، وعلى جميع أئمة المسلمين .

● الاتفاق على أن الله فوق العرش :

وجملة قولنا أنّا نقر بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وما جاء من عند الله ، وما رواه الثقات عن رسول الله ﷺ ، وذكر ما تقدم وغيره جمل كبيرة أوردت فى غير هذا الموضع ، وقال أبو بكر الآجرى فى كتاب « الشريعة » : الذى يذهب إليه أهل العلم أنّ الله تعالى على عرشه فوق سمواته ، وعلمه محيط بكل شىء ، قد أحاط بجميع ما خلق فى السموات العلا ، وجميع ما فى سبع أرضين ، يرفع إليه أفعال العباد ، فإن قال قائل : أى شىء معنى قوله : ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلا هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾ ... الآية [1] ؟ قيل له : علمه ، والله على عرشه وعلمه محيط بهم ، كذا فسّره أهل العلم ، والآية يدل أولها وآخرها أنه العلم وهو على عرشه هذا قول المسلمين .

والقول الذى قاله الشيخ محمد بن أبى زيد وأنه فوق عرشه المجيد بذاته وهو فى كل مكان بعلمه قد تأوّله بعض المبطلين بأن رفع « المجيد » ، ومراده أنّ الله هو المجيد بذاته ، وهذا مع أنه جهل واضح ، فإنه بمنزلة أن يقال : الرحمن بذاته والرحيم بذاته ، والعزيز بذاته .

وقد صرّح ابن أبى زيد فى « المختصر » بأن الله فى سمائه دون أرضه - هذا لفظه - والذى قاله ابن أبى زيد ما زالت تقوله أئمة أهل السُنّة فى جميع الطوائف .

---

(١) المجادلة : ٧

وقد ذكر أبو عمرو الطلمنكى الإمام فى كتابه الذى سماه « الوصول إلى معرفة الأصول » : أن أهل السُنّة والجماعة متفقون على أن الله استوى بذاته على عرشه ، وكذلك ذكره عثمان بن أبى شيبة حافظ الكوفة فى طبقة البخارى ونحوه ، ذكر ذلك عن أهل السُنّة والجماعة ، وكذلك ذكره يحيى بن عمار السجستانى الإمام فى رسالته المشهورة فى السُنّة التى كتبها إلى ملك بلاده ... وكذلك ذكر أبو نصر السجزى الحافظ فى كتاب « الإبانة » له قال : وأئمتنا كالثورى ومالك وابن عيينة وحماد بن سلمة وحماد بن زيد وابن المبارك وفضيل بن عياض وأحمد وإسحاق متفقون على أن الله فوق العرش بذاته ، وأن علمه بكل مكان ، وكذلك ذكر شيخ الإسلام الأنصارى وأبو العباس الطرقى والشيخ عبد القادر ومَن لا يحصى عدده إلاّ الله من أئمة الإسلام وشيوخه .

● استواء الله على العرش ، وكلام الله غير مخلوق :

وقال الحافظ أبو نعيم الأصبهانى صاحب « حلية الأولياء » وغير ذلك من الصفات المشهورة فى الاعتقاد الذى جمعه : طريقنا طريق السلف المتبعين الكتاب والسُنّة وإجماع الأمة ، قال : وما اعتقدوه أنّ الله لم يزل كاملاً بجميع صفاته القديمة لا يزول ولا يحول ، لم يزل عالماً بعلم بصيراً ببصر سميعاً بسمع متكلماً بكلام ، أحدث الأشياء من غير شىء ، وأن القرآن كلام الله وسائر كتبه المنزّلة كلامه غير مخلوق ، وأن القرآن من جميع الجهات مقروءاً ومتلواً ومحفوظاً ومسموعاً وملفوظاً كلام الله حقيقة لا حكاية ولا ترجمة ، وأنه بألفاظنا كلام الله غير مخلوق ، وأن الواقفة من اللفظية من الجهمية ، وأن مَن قصد القرآن بوجه من الوجوه يريد خلق كلام الله فهو عندهم من الجهمية ، وأن الجهمى عندهم كافر - وذكر أشياء إلى أن قال : وإن الأحاديث التى ثبتت عن النبى ﷺ فى العرش واستواء الله عليه يقولون بها ويثبتونها من غير تكييف ولا تمثيل ، وأن الله بائن من خلقه والخلق بائنون منه لا يحل فيهم ولا يمتزج بهم ، وهو مستو على عرشه فى سمائه من دون أرضه ، وذكر سائر اعتقادات السلف وإجماعهم على ذلك .

وقال يحيى بن عثمان فى رسالته : لا نقول كما قالت الجهمية أنه مداخل الأمكنة وممازج كل شىء ولا نعلم أين هو ، بل نقول : هو بذاته على عرشه وعلمه محيط بكل شىء وسمعه وبصره وقُدرته مدركة لكل شىء وهو معنى قوله : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ (١) .

وقال الشيخ العارف معمر بن أحمد شيخ الصوفية فى هذا العصر : أحببت أن أوصى أصحابى بوصية من السُنّة وأجمع ما كان عليه أهل الحديث وأهل المعرفة والتصوف من المتقدمين والمتأخرين ، فذكر أشياء من الوصية إلى أن قال فيها : وأن الله استوى على عرشه بلا كيف ولا تأويل ، والاستواء معقول والكيف مجهول ، وأنه مستو على عرشه بائن من خلقه والخلق بائنون منه بلا حلول ولا ممازجة ولا ملاصقة ، وأنه عَزَّ وجَلَّ بصير سميع عليم خبير ، يتكلم ويرضى ويسخط ويضحك ويعجب ، ويتجلى لعباده يوم القيامة ضاحكاً ، وينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا كيف شاء بلا كيف ولا تأويل ، ومَن أنكر النزول أو تأوّل فهو مبتدع ضال .

وقال الإمام أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابونى النيسابورى فى كتاب « الرسالة فى السُنّة » : ويعتقد أصحاب الحديث ويشهدون أنّ الله فوق سبع سمواته على عرشه كما نطق به كتابه ، وعلماء الأمة وأعيان سَلَف الأمة لم يختلفوا أنّ الله تعالى على عرشه فوق سمواته قال : وأما إمامنا أبو عبد الله الشافعى فقد احتج فى كتابه « المبسوط » فى مسألة إعتاق الرقبة المؤمنة فى الكفّارة ، وأن الرقبة الكافرة لا يصح التكفير بها بخبر معاوية بن الحكم ، وأنه أراد أن يعتق الجارية السوداء عن الكفّارة ، وسأل النبى ﷺ عن إعتاقه إياها فامتحنها ليعرف أنها مؤمنة أم لا ! فقال لها : « أين ربك » ؟ فأشارت إلى السماء ، فقال : « أعتقها فإنها مؤمنة » ، فحكم بإيمانها لما أقرّت أن ربها فى السماء وعرفت ربها بصفة العلو والفوقية .

---

(١) الحديد : ٤

وقال الحافظ أبو بكر البيهقى « باب القول فى الاستواء » :

قال الله تعالى ﴿ الرَّحْمنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى ﴾ (١) ، ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ ﴾ (٢) ، ﴿ وَهُوَ القَاهرُ فَوْقَ عبَاده ﴾ (٣) ، ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّنْ فَوْقهمْ ﴾ (٤) ، ﴿ إلَيْه يَصْعَدُ الكَلمُ الطَّيِّبُ وَالعَمَلُ الصَّالحُ يَرْفَعُهُ ﴾ (٥) ، ﴿ ءَأمنتُم مَّن فى السَّمَاء ﴾ (٦) وأراد : من فوق السماء كما قال : ﴿ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فى جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ (٧) بمعنى على جذوع النخل ، وقال : ﴿ فَسيحُواْ فى الأَرْضِ ﴾ (٨) أى على الأرض ، وكل ما علا فهو سماء ، والعرش أعلى السموات ، فمعنى الآية : ءأنتم مَن على العرش ، كما صرّح به فى سائر الآيات ، قال : وفيما كتبنا من الآيات دلالة على إبطال قول مَن زعم من الجهمية أن الله بذاته فى كل مكان ، وقوله : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ (٩) إنما أراد بعلمه لا بذاته .

وقال أبو عمر بن عبد البر فى « شرح الموطأ » لما تكلم على حديث النزول قال : وهذا حديث لم يختلف أهل الحديث فى صحته ، وفيه دليل أن الله فى السماء على العرش من فوق سبع سموات كما قالت الجماعة ، وهو من حجتهم على المعتزلة ، قال : وهذا أشهر عند الخاصة والعامة وأعرف من أن يحتاج إلى أكثر من حكايته لأنه اضطرار لم يوقفهم عليه أحد ولا أنكره عليهم مسلم ، وقال أبو عمر أيضاً : أجمع علماء الصحابة والتابعين الذين حُملَ عنهم قالوا فى تأويل قوله : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ (١٠) : هو على العرش وعلمه فى كل مكان وما خالفهم فى ذلك أحد يُحتج بقوله .

* *

(١) طه : ٥ (٢) الأعراف : ٥٤ (٣) الأنعام : ١٨
(٤) النحل : ٥٠ (٥) فاطر : ١٠ (٦) الملك : ١٦
(٧) طه : ٧١ (٨) التوبة : ٢ (٩) الحديد : ٤
(١٠) المجادلة : ٧

وقال شيخ الإسلام المسؤول أيّده الله : فهذا ما تلقاه الخَلف عن السَلف ، إذ لم يُنقل عنهم غير ذلك ، إذ هو الحق الظاهر الذى دلّت عليه الآيات الفرقانية والأحاديث النبوية ، فنسأل الله العظيم أن يختم لنا بخير ولسائر المسلمين ، وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا بمنه وكرمه ، إنه أرحم الراحمين .. والحمد لله وحده .

* * *